الفصل التاسع

العرب والمسلمون وعلم الجغرافيا

مما لاشك فيه أن علماء العرب والمسلمين قد ذللوا المعلومات التي ورثوها من الحضارات السابقة لهم في علم الجغرافيا، فعلماء العرب والمسلمين صححوا كثيرا من الأغلاط في نظريات بطليموس، مثل مبالغة بطليموس في تحديد طول البحر الأبيض المتوسط وامتداد الجزء المعمور من الأرض، وكذلك تصوره خطأ بأن كلا من المحيط الهندي والمحيط الهادي بحيرة مغلقة، وغلطته في تعيين موقع بحر قزوين والخليج العربي وتحديد حجم جزيرة سيرلانكا (سيلان).

بدهي أن علماء العرب والمسلمين تفوقوا على علماء الرومان في مجال علم الجغرافية لأنهم دخلوا الصين وأفريقيا دون الرومان. ودعاهم ذلك إلى دراسة مناخ الغابات المختلفة هذا مما دفع علماء أوربا خلال العصور الوسطى أن يتلقوا معلوماتهم عن أفريقيا والصين من المصادر العربية، لأنهم كانوا يجهلونها تماما.

يجب أن نذكر في هذه المناسبة أن لعلماء العرب والمسلمين الفضل في التعرف على الجغرافية الطبيعية والاقتصادية للبلدان التي مروا بها. كما أن الفتوحات الإسلامية هيأت لهم فرصة لدراسة صفات الأرض وأقسامها.

يقول كل من مريسي لومبارد وعبدالرحمن حميدة في كتابهما (الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى). لقد كان صدر العصر الوسيط، أي منذ تأسيس القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي حتى موجة الاندفاع الصليبي ابتداء من القرن الحادي عشر، كان حقبة شرقية في التاريخ، شرقية في كل مجالاتها وفي كل مظاهرها. ويكون هذا صحيحا، على الخصوص، بالنسبة للقرون الثلاثة التي تبدأ من منتصف القرن الثامن حتى أواسط القرن الحادي عشر الميلادي والتي تنطبق على أوج الازدهار في العالم الإسلامي. ففي تلك الفترة

كانت تستقر في الشرق الإسلامي المراكز الفعالة في الحياة الاقتصادية والفكرية، أما الغرب الأوربي فلم يكن يحوي أكثر من مساحات خاوية ومستقبلة ضمن رقعة انحسرت فيها الفعالية التجارية والثقافية منذ انحطاط روما وزحف جحافل البرابرة من أواسط آسيا.

وأضاف محمد السيد غلاب في مقالة تحت عنوان (الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي) ظهرت ضمن بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٤هجرية) أن دراسة تطور الفكر الجغرافي لدى علماء العرب والمسلمين في فترة ازدهار العلوم العربية والإسلامية تعتبر بحق حلقة هامة في تاريخ علم الجغرافية وتطور أفكاره الرئيسية. ونحب هنا أن نؤكد على أن الإسلام قد دعا العرب والمسلمين عامة إلى النظر في السماوات والأرض، وإلى تأمل الكون، وظواهر الطبيعة وسقوط الأمطار ونمو الأعشاب والأشجار، وتعاقب الليل والنهار وخسوف القمر وكسوف الشمس وبدء الخلق وتطوره، ودعا أيضا إلى السفر والارتحال والسياحة في الأرض وتأمل خلق الله واختلاف الألسنة. كما دعا الإسلام إلى التدبر والتعقل لاكتشاف أسرار المخلوقات وتعظيم الخالق المصور سبحانه وتعالى.

أقبل علماء العرب والمسلمين على دراسة التراث الجغرافي النظري الذي ورثوه عن الحضارتين اليونانية والرومانية، حيث كان لدى علماء العرب والمسلمين الرغبة الصادقة بل العارمة ليس فقط لمعرفة المسالك والطرق للأمة الإسلامية الفسيحة ولكن للعالم أجمع.

يذكر محمد محمود الصياد في كتابه (من الوجهة الجغرافية) أن روح البحث العلمي عندما ظهر الإسلام قد انعدمت أو كادت، إذ فشل علماء الرومان في الأخذ بآراء فلاسفتهم بل ظفرت الكنيسة المسيحية ببلورة أفكارها العقيمة، ولكن علماء العرب والمسلمين عندما تقدمت دولتهم عادوا إلى بعث النظريات الجغرافية اليونانية القديمة، وربطوا بذلك بين العلم القديم والحديث، واختلفوا عن اليونان والرومان معا، فقد كان اليونان أصحاب حضارة وثقافة، بينما الرومان كانوا قوم حروب وفتوح، أما العرب والمسلمون فقد قاموا بالأمرين معا فأسسوا دولة إسلامية عظيمة مترامية الأطراف ترتكز على أسس وقوانين راسخة، وبنى في

الوقت نفسه علماء العرب والمسلمين حضارة عالمية، لم تكتف بالحدود المحلية، بل أخذت عن الحضارات المصرية والبابلية والفارسية والهندية واليونانية وغيرها.

استفاد علماء العرب والمسلمين من نتاج علماء اليونان والرومان في مجال الجغرافيا الفلكية ولكنهم لم يتوقفوا على النقل عن علماء اليونان والرومان، بل أبدعوا ليس فقط في الجغرافيا الفلكية ولكن أيضا في الجغرافية الوصفية التي تعتبر من ابتكاراتهم العلمية، فأضافوا أفكارا ومفاهيم جديدة في مجال علم الجغرافية بوجه عام.

يذكر أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) أن علماء الغرب يعرفون تمام المعرفة أن علماء العرب والمسلمين هم الذين أرسو الأسس الأولى لعلم الجغرافية الحديثة، علماً أنهم استفادوا الفائدة الرائعة من المادة الهائلة في مجال علم الجغرافية التي ورثوها عن علماء اليونان خلال العصور الوسطى.

وأضاف شاكر خصباك في كتابه (في الجغرافيا العربية) أن علماء العرب والمسلمين استفادوا فائدة كبيرة من آراء اليونان والرومان الجغرافية، حيث عمل المترجمون العرب على نقل أهم المؤلفات الجغرافية والرياضية والفلكية إلى اللغة العربية. ثم تلت هذه المرحلة مرحلة الإبداع الذاتي التي طور فيها علماء العرب والمسلمين علم الفلك والجغرافية والرياضيات وبقيت العلوم الأخرى تتطور تطورا ملحوظا. ولذلك فقد كانت خدمة العرب للفكر الجغرافي خدمة مزدوجة فقد حفظوا تراث اليونان من الضياع، كما قدموا المفاهيم الجغرافية في حقول متعددة ولاسيما حقلي الجغرافية الفلكية والوصفية.

إن من أهم المصادر التي نهل منها علماء العرب والمسلمين علم الجغرافية هي :

١ ـ الشعر العربي القديم، حيث إن الشعر العربي القديم غني بأعلام وأماكن جغرافية كانت معروفة عند البدو الرحل.

٢ ـ علماء اللغة العربية، حيث بقيت الصلة متينة بين اللغويين والجغرافيين، ويظهر ذلك واضحا من المعاجم العربية.

٣ ـ القرآن الكريم والأحاديث النبوية تناولت كثيرا من المعلومات الجغرافية الفلكية والوصفية.

٤ ـ قصص تناولها اليهود والنصارى تحتوي على معلومات جغرافية ثمينة.
٥ ـ المصادر الفارسية والمصرية والفينيقية والهندية واليونانية والرومانية وغيرها.
٦ ـ الرحلات التي قام بها علماء العرب والمسلمين محاولين معرفة المسالك والممالك.

المصادر الأولية للمعرفة الجغرافية عند علماء العرب والمسلمين:

كانت معرفة العرب الجغرافية قبل الإسلام محدودة للغاية، فلم تتعد معرفة البلاد المجاورة لهم كالهند وإيران وتركيا والشام ومصر والحبشة والعراق، وذلك فيما يتعلق بعلم الأنواء والهداية بالنجوم ومسالك الطرق الصحراوية والإنتاج الزراعي، لأن التعامل مع هذه البلدان تجاريا كان على أشده.

ولم تستمر الحال على هذا، بل بعد بعثة الرسول ﷺ انتشر الإسلام وكثرت الفتوحات الإسلامية، لذا صار لعلماء العرب والمسلمين صولة وجولة في مجال علم الجغرافية التي كانت في حالة وهن في العصر الروماني المتدهور علميا.

ولايخفى على القارىء أن العرب قبل الإسلام اشتهروا في رحلتيهما التجارية (رحلة الشتاء ورحلة الصيف) مما أعطاهم الفرصة الذهبية لمعرفة المسالك والممالك آنذاك. فعندما كثرت الفتوحات الإسلامية كان العرب عندهم معلومات جغرافية كافية لكثير من البلدان المفتوحة بواسطة جيوشهم الأشاوس.

لقد استقى علماء العرب والمسلمين المهتمون في علم الجغرافية أيضا كثيرا من معلوماتهم الجغرافية من الشعر العربي القديم، حيث كان من أهم وأغنى المصادر في هذا المجال الحيوي لذا نرى نوابغ اللغة العربية من كبار رواد علم الجغرافية وعلى رأسهم الأصمعي.

ويذكر محمد محمود الصياد في كتابه (من الوجهة الجغرافية) أن أشعار العرب اشتملت على كثير من الحقائق الجغرافية الخاصة بوصف بيئتهم الطبيعية حتى أصبح الشعر العربي القديم مصدرا هاما في الكتابات الجغرافية الأولى فهو غني بالأعلام الجغرافية من أودية وآبار وجبال وتلال ومعالم ورسوم ونظرة سريعة في المعلقات السبع أوالعشر توضح مدى اهتمام العرب بالمظاهر الجغرافية لبلادهم. وقد انتقلت هذه المعلومات الثمينة من جيل إلى آخر على ألسنة الرواة، فقد كانت

رواية الشعر من الفضل ماعني به العرب على مر العصور، ولذا لم يكن غريبا أن نجد الجغرافية بين الفنون التي يعمل بها اللغويون.

إن المعلومات الجغرافية الثمينة التي ضمنها العرب الأوائل أشعارهم تحت اسم الجغرافية الوصفية التي تميز بها علماء العرب والمسلمين. كما أنهم لم يهملوا الجغرافية الفلكية لالتصاقها بمعرفة المناخ وحركة النجوم التي يهتدي بها العرب في الصحاري القاحلة.

وهناك إجماع عند مؤرخي العلوم أن أسباب تفوق علماء العرب والمسلمين في علم الفلك صحو السماء خلال معظم شهور السنة كما كان لعلماء العرب والمسلمين اهتمامات كثيرة في دراسة النجوم وحركتها. ولذا عرفوا عددا كبيرا منها ولاتزال تحمل الاسم العربي.

لقد طور علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية لأنهم يعتقدون بقناعة أنه العلم الوحيد الذي يجتمع فيه التاجر والمسافر والقاضي والفقيه والأديب وعلماء العلوم البحتة والتطبيقية، فهو المصدر الذي يعرف الإنسان بتاريخ الزراعة والتجارة وموقع البلاد وعادات أهلها، لذا حث المصطفى محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم على دراسته.

أخذ علماء العرب والمسلمين بتوجيه الرسول ﷺ وتنفيذ أوامره، فكانت دراستهم في الأول مقتصرة على الثروة الحيوانية والموقع والمناخ، ولكن سرعان ماتسعت رقعة الدولة الإسلامية وبدأ علماء العرب والمسلمين بتطوير كل من الجغرافية الوصفية والجغرافية الفلكية ونبغوا فيهما، وبقيت مؤلفاتهم من أهم المصادر في هذا الميدان.

ويذكر عبدالرحمن حميدة في كتابه (أعلام الجغرافيين العرب) أن عناية العرب بعلم الجغرافية وليدة ظروف البيئة إلى حد كبير جدا فقد نشأوا في وسط يلزمهم أن يلموا بالمعلومات الجغرافية المختلفة فلم يكن بمقدورهم أن يقوموا بتجارتهم عبر الصحارى الشاسعة، إلا إذا عرفوا شيئا عن النجوم والكواكب التي تلمع في سمائهم الصافية الأديم ليتخذوا منها علامات، وما كان لهم أن ينتقلوا بإبلهم وأغنامهم وهي أثمن مايملكون إلا إذا عرفوا موارد المياه ومنابت الكلأ وعرفوا الوحش من حيوان البادية وأين يعيش.

اشتهر العرب قبل الإسلام وبعده بالرحلات المتكررة باحثين عن مصادر رزقهم عبر تسويق تجارتهم، وإثراء معرفتهم الجغرافية خلال اتصالاتهم الشخصية، لذا تجشموا أعباء ومتاعب السفر.

ومما لاشك فيه أن علماء العرب والمسلمين هم الذين قضوا على المعتقدات الفاسدة التي تبناها الرومانيون بسبب تعاليم كنيستهم المسيحية العقيمة لذا اندفع علماء العرب والمسلمين إلى دراسة علم الجغرافية، فهم الذين بدأوا الحركة الفكرية الجغرافية التي قامت على أسس علمية فقد قسموا علم الجغرافية إلى فروع كثيرة هي الجغرافية الطبيعية والبشرية والاقتصادية والسياسية والتاريخية. وبهذا العمل الشريف أنقذ علماء العرب والمسلمين علم الجغرافية من الخرافات والأساطير التي لاتأتي بخير.

اهتمام علماء العرب والمسلمين بعلم الجغرافية:

في بادىء الأمر كانت دراسة علماء العرب والمسلمين لعلم الجغرافية تستند على معرفة الأرض من حيث مسالكها وسكانها من إنسان وحيوان ومنتجاتها النباتية والمعدنية ثم نشاط قاطنيها من الناحية الاقتصادية.

عندما كبرت الدولة الإسلامية بعد الفتوحات وجدوا أنه من الضروري الوقوف على أحوال البلاد من أجواء ومسافات وعادات وحرارة وبرودة واتجاهات سياسية واقتصادية.

وبالفعل اهتم علماء العرب والمسلمين بعلم الجغرافية اهتماما بالغا بالجغرافية الوصفية وذلك بعد الفتوحات الإسلامية، والجغرافية الوصفية تعتبر من أهم فروع الجغرافية الحديثة وهي التي أهملها الهنود واليونان والرومان وغيرهم من السابقين لعلماء العرب والمسلمين ولذا يحسن القول أن علماء العرب والمسلمين هم مؤسسو علم الجغرافية الوصفية.

البريد من أهم الوسائل التي قادت علماء العرب والمسلمين إلى تطوير معلوماتهم الجغرافية كما أن كلمة بريد كلمة عربية فصيحة وليست ككلمة جغرافية التي تعتبر دخيلة على اللغة العربية والتي كان يستخدم علماء العرب والمسلمين مكانها (علم تقويم البلدان) وفي الإسلام أول من فكر في البريد

معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه، ثم عممه على البلاد الإسلامية عبدالملك بن مروان.

نجد أن معرفة الطرق بين الأقطار الإسلامية ضرورية، لكي يصل البريد إلى الخليفة في الوقت المناسب وساعي البريد في ذلك الوقت يختلف تماما عن ساعي البريد الآن فالشخص الذي يكلف في هذه المهمة عادة من الثقات والمعروفين لدى الخليفة لأنه ينقل الأخبار أولا بأول عن العمال ونوايا الأعداء فهو العين الساهرة للخليفة.

لقد أولى علماء العرب والمسلمين عناية خاصة للجغرافية الفلكية والرياضية لأنها تحدد خطوط الطول والعرض فعلماء العرب والمسلمين هم الذين طوروا في علم الجغرافية الفلكية والرياضية حيث استعملوا النظريات الرياضية والمثلثية في بعض ابتكاراتهم الجغرافية لذا فهم بحق مطوروا الجغرافية الفلكية والرياضية التي كانت في عزها في الفترة اليونانية وتقهقرت في العصر الروماني.

اهتم علماء العرب والمسلمين في دراسة نتاج بطليموس وخاصة كتابه المجسطى وكتاب الجغرافية ويعرف بكتاب (المرشد إلى الجغرافيا) أو (المدخل إلى الجغرافيا) لأنها من أهم المصادر التي استفاد منها علماء العرب والمسلمين في مجال علم الجغرافية قام بترجمة المجسطي الحجاج بن يوسف بن مطر (١٧٠-٢٢٠هجرية) ثم صحح هذه الترجمة وعلق عليها ثابت بن قره الحراني (٢١٩-٢٨٨)هجرية.

المجسطي المعروف باسم الجامع عند علماء العرب والمسلمين أما عند علماء الغرب فاسمه المجسط وهذا الكتاب يحتوي على معلومات في غاية الأهمية عن كل من علم الفلك وعلم الجغرافية وقد تم نشره سنة٨٨٩ هجرية.

ركز علماء العرب والمسلمين على دراسة علم الجغرافية لأن البيئة تحتم عليهم ذلك فمثلا فريضة الحج تفرض على علماء العرب والمسلمين معرفة المسالك والطرق المؤدية إلى مكة المكرمة أيضا ضرورة الوقوف على حدود البلدان المفتوحة وغيرها.

مع أن علماء العرب والمسلمين درسوا بكل دقة الجغرافية الفلكية التي تعتمد تماما على علم الرياضيات والجغرافية الوصفية التي تختص بوصف المدن والأقطار

والأنهار والجبال وحالة السكان فلم يكتفوا بهذا بل أعطوا عناية تامة لمعرفة المناخ والتقاسيم السياسية وعادات الناس، ولم يهملوا أبدا العلاقة القوية بين علم الجغرافية والتاريخ وعلم الاجتماع.

ساق علماء العرب والمسلمين البراهين على أن للأرض والمناخ تأثيرا في بشرة الإنسان وبدنه وأخلاقه، وبين الجغرافيون العرب والمسلمون الصلة القوية بين علمي الجغرافية والفلك بما جاءوا به من نظريات كثيرة في علم الجغرافية الرياضية والفلكية تدل على مواقيت الصلاة والصيام والحج فلعلماء العرب والمسلمين الفضل في ربط الجغرافية بعلمي الفلك والرياضيات والتي قدموا فيهما دراسات عميقة تدل على طول باعهم في هذين الميدانين الحيويين.

تميز علم الجغرافية عن سائر العلوم الأخرى لأن الكثير من الذين عملوا في هذا الميدان غير متخصصين به فمنهم اللغوي والطبيب والرياضي والفلكي وغيرهم لأن علماء العرب والمسلمين رأوا أن علم الجغرافية مادة ثقافية وضروربة للإنسان حيث إنها تجمع بين كثير من فروع المعرفة.

لقد تحمل علماء العرب والمسلمين مشاق ومخاطر الطرق للطواف في البلدان النائية للحصول على معلومات جغرافية جديدة كما أنهم كانوا يتنافسون على الحصول على المعلومات الصائبة لأن الحكام والتجار يشجعونهم على ذلك ويصرفون لهم المكافأت التشجيعية السخية والمغنية.

وكان تشجيع الحكام والتجار آنذاك نابعا عن أهمية المعلومات التي يحصل عليها علماء الجغرافية والتي ساعدت هؤلاء الحكام والتجار في معرفة الطرق والأقاليم وعادات السكان والمحصولات الزراعية والمعدنية ومما لاشك فيه أن الدراسات التي قام بها علماء العرب والمسلمين في ميدان علم الجغرافية كانت من أهم المصادر لتقوية نفوذهم.

اعتماد علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية على الدراسة الميدانية:

لقد اعتمد علماء العرب والمسلمين في حقل الجغرافية على الرحلات الميدانية لكي يحصلوا على الخبرة الشخصية التي لاتقدر بثمن وذلك لاهتمام المسلمين في النواحي التجارية والفتوحات، لذا نرى علماء العرب والمسلمين تميزوا عن غيرهم

في الأسفار للمعاينة الميدانية. ويظهر ذلك في مؤلفاتهم العديدة في هذا المجال ونتيجة لرحلاتهم الكثيرة عرفوا عن كثب الجزء المعمور من الأرض (الجزء الشمالي) وغير المعمور (الجزء الجنوبي) وخط الاستواء والمنطقتين الاستوائية والقطبية وغير ذلك.

حث الإسلام على الأسفار في طلب الرزق ونشر تعاليم الدين الحنيف: فقال: تبارك وتعالى: ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾ «سورة الملك آية١٥».

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

سافر تجد عوضا عمن تفارقه وانصب فإن لذيذ العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة لملها الناس من عجم ومن عرب

ولم يكتف علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية على مجرد السماع والنقل، بل استندوا على التجربة والمشاهدة الميدانية، وذلك باستخدام الخرائط الجغرافية كوسائل للإيضاح. وقد استفادوا من الاتصال التجاري الذي صار بينهم وبين البلدان التي يتعاملون معها. لذا أصبح عندهم اطلاع واسع في حقل الجغرافية بوجه عام.

والجدير بالذكر أنه يتخلل الرحلات الميمونة بعض القصص الطريفة التي تنعش القارىء إلى درجة أنه يصير متعشما لزيارة تلك البلاد مما دفع عجلة تطور علم الجغرافية.

عندما يقوم علماء العرب والمسلمين برحلة حول العالم عادة يكون لها طابع علمي أدبي نتج عن ذلك أن تقارير الرحلات التي دونها علماء العرب والمسلمين لها أهمية علمية خاصة لأنها تحتوي على معلومات قيمة عن الاقتصاد والسياسية والعمران وتعدد السكان والحياة الاجتماعية والعلمية للبلدان التي زاروها.

وهناك بعض الرحلات التي يقوم بها بعض السائحين المثقفين وتشمل بعض الأحيان معلومات استكشافية مفيدة للباحث في حقلي الأدب والجغرافية، لذا نجد علماء العرب والمسلمين لم يهملوا هذا الجانب الهام، بل استغلوه أحسن استغلال.

نعم بقيت القارة الأفريقية مجهولة لعلماء الغرب، اللهم إلا السواحل الشمالية من القارة الأفريقية، بينما درس علماء العرب والمسلمين بالتفصيل هذه القارة واستفادوا من خبرات قاطنيها الزراعية والحيوانية، ولم تكن قسوة المناخ والغابات حاجزا أمامهم. والحق أن علماء أوروبا اعتمدوا في مصنفاتهم على ماكتبه علماء العرب والمسلمين ليس فقط عن القارة الأفريقية ولكن أيضا عن المحيط الهندي وغيره.

مع الأسف الشديد أن يتناقل علماء الغرب أن علماء العرب والمسلمين لهم دور فقط في البر والصحارى ومعرفة طرقها، أما الملاحة فإنهم يجهلونها تماما. ولكن الحقيقة والأمانة توضح أن علماء العرب والمسلمين تميزوا في معرفة كل من البر والبحر، فكان لهم دور مرموق في الأسفار عبر الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط وغيرهما.

وكان العرب والمسلمون يجوبون عباب البحر منذ فجر التاريخ، وذلك لأن بلادهم محاطة بالبحر من ثلاث جهات، يبدأ من خليج السويس وينتهي إلى الخليج العربي عند البصرة، والحقيقة أن المغامرة في البحر أقل بكثير هولا من عبور الصحاري القاحلة والجبال العارية في شبه الجزيرة العربية وغيرها.

ولاننكر أن الملاحة العربية والإسلامية تأثرت ببعض القصص والروايات الفارسية، ويظهر ذلك واضحا وجليا من بعض المصطلحات التي لاتزال متداولة في البحرية العربية والإسلامية مثل بندر والذي يقصد به ثغر، ونوخذا ويراد به ربان السفينة، ودفتر ويعني الارشادات البحرية، وخن وتعرف بالاتجاه وغير ذلك كثيرا.

بعد الفتوحات الإسلامية الكثيرة اضطر خلفاء المسلمين أن يتجهوا إلى الملاحة لمواجهة الروم في البحر الأبيض المتوسط لحفاظهم على حدود بلادهم البحرية المترامية الأطراف.

ويذكر محمد فائز القصري في كتابه (النهضة الأوربية) أن الدولة الإسلامية الجديدة اضطرت لمجابهة الروم والفرس والرد على غزو السفن البيزنطية لسواحل مصر والشام بعد تحريرها ولمقاتلة العدو في البحر أيضا، لذا فكر معاوية بن أبي سفيان بإنشاء دار لصناعة السفن في عكا، فكانت مثلا لامعا لدور الصناعة التي

أنشئت فيما بعد على سواحل البحر الأبيض المتوسط ولاسيما في موانىء طرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ودمياط والإسكندرية وتونس والأندلس (ميناء ألمرية) وقد مكنت هذه المصانع العرب من فتح جزر البحر الأبيض المتوسط وسواحل فرنسا وإيطاليا، فأصبح البحر الأبيض المتوسط عربيا بعد أن كان روميا.

لقد كان علماء العرب والمسلمين من هواة خوض البحار وارتياد الأقطار المختلفة الإسلامية وغير الإسلامية ، لذا نجدهم أول من وضع أصول الرسم على سطح الكرة الأرضية وهكذا ليس بغريب على القارىء العربي أن يتفوق علماء العرب والمسلمين في التنقل في الجزيرة العربية والأقطار العالمية المجاورة فهذه الصفة تكاد تكون من طبيعة العرب، لأنهم اشتهروا بالرحلات في جميع أنحاء الجزيرة العربية والعالم لتعاملهم في التجارة.

دور علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الجغرافية:

لعب موضوع شكل الأرض دورا هاما في ميدان علم الجغرافية، فقد اختلف علماء العرب والمسلمين على شكلها في بادىء الأمر، فمنهم من يقول إنها مبسوطة مسطحة والبعض الآخر يصر على أنها كروية ، ولكن في النهاية استقر رأيهم بأنها مدورة كتدويرة الكرة، وصارت هذه الحقيقة مسلمة عند علماء الجغرافية في العصور الإسلامية.

اهتم علماء العرب والمسلمين اهتماما كبيرا في تحديد الجهات الأربع، ولهم أيضا باع طويل في تحديد المناطق التي تكثر فيها الجبال والأنهار، مما يعطي فكرة عن تعمقهم في دراسة الجغرافية الطبيعية، ومن دراستهم هذه عرفوا بكل إتقان كروية الأرض التي كانت مدار النقاش في ذلك الوقت.

تناول علماء العرب والمسلمين في دراستهم الأقاليم السبعة وتحدثوا عنها من حيث صلاحيتها للزراعة كما تكلموا عن البحار والأنهار بوجه عام وغير ذلك من الظواهر الجغرافية والجدير بالذكر أن كلمة إقليم عربية أصيلة تعني الجزء المقلوم من الأرض.

حدد علماء العرب والمسلمين الأقاليم السبعة تحديدا علميا دقيقاً، اعتمده آنذاك علماء الجغرافية والتجار الذين يتنقلون من بلد إلى آخر للبيع والشراء

ويتضح ذلك من أقوال علماءالعرب والمسلمين الأوائل.

يقول إخوان الصفاء وخلان الوفاء في كتابهم (رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ـ الجزء الرابع) «الأقاليم هي سبعة أقسام، خطت في الربع المسكون من الأرض، كل إقليم منها كأنه بساط مفروش قد مد طوله من المشرق إلى المغرب وعرضه من الجنوب إلى الشمال، وهي مختلفة الطول والعرض فأطولها وأعرضها الإقليم الأول، وذلك أن طوله من المشرق إلى المغرب نحو من ثلاثة آلاف فرسخ (الفرسخ ـ٣أميال) عرضه من الجنوب إلى الشمال نحو مائة وخمسين فرسخا، واقصرها طولا وعرضا الإقليم السابع وذلك طوله من المشرق إلى المغرب نحواً من ألف وخمسمائة فرسخ، وعرضه من الجنوب نحواً من سبعين فرسخ، وأما سائر الأقاليم ففيما بينهما من الطول والعرض، وهذا مثال ذلك، والله أعلم بالصواب والمرجع والمآب».

كان لدى علماء العرب والمسلمين قناعة واضحة وجلية أن الأقاليم السبعة التي اعتمدوها مقسمة تقسيما ليس طبيعيا، بل بخطوط وهمية عملها الإنسان لمصالحه السياسية والاقتصادية، وأن هناك مناطق وعرة ومستحيل الوصول إليها في ذلك الوقت نتيجة جبالها الشامخة والبحار الهائجة كما تبين لهم أن الأرض أصغر كوكب، وهذا الأمر بحد ذاته تفوق علمي عظيم.

يقول إخوان الصفاء وخلان الوفاء في كتابهم آنف الذكر«واعلم أن الأرض بجميع ماعليها من الجبال والبحار بالنسبة إلى سعة الأفلاك ماهي إلا كالنقطة في الدائرة، وذلك أن في الفلك ألفا وتسعة وعشرين كوكبا، أصغر كوكب منها مثل الأرض ثماني عشرة مرة، وأكبرها مائة وسبعين مرة، فلشدة البعد وسعة الأفلاك تراها كأنها الدر المنثور على بساط أخضر، فإذا فكر الإنسان في هذه العظمة تبين له حكمة الصانع وجلالة عظمته، فينتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ويعلم أنه ماخلق هذه الأشياء إلا لأمر عظيم وذلك قوله تعالى: ﴿**ماخلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق**﴾.

فمعرفة علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية راجع لاتصالهم التجاري، فقد وصلت تجارتهم المناطق الجليدية في أقصى الشمال، وجابوا قارة أفريقية والشرق الأقصى حتى وصلوا الصين، لذا نجد أنهم صححوا الأخطاء الكثيرة

التي وقع فيها علماء اليونان والرومان عند تحديد مواقع المدن والمسالك باستخدام خطوط الطول والعرض.

يتضح للقارىء أن علماء العرب والمسلمين في مجال علم الجغرافية استفادوا من هذه الرحلات فوصلوا إلى بعض الحقائق الجغرافية التي تعتبر بحق انتصارات علمية مثل رسم الخرائط الجغرافية ومعرفة الحالة الاقتصادية للبلاد ومعلومات فلكية ثمينة لايمكن الحصول عليها إلا بهذا الطريق.

نعم معظم نوابغ علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية عملوا في ميدان التجارة ولكن كان لديهم الاستعداد اللازم للتأمل العلمي، فصاروا رواد الفكر في هذا الحقل، كما أن الرحلات في ذلكم الوقت كانت ضرورية لطلاب العلم الذين يريدون أن يشتغلوا في علم الجغرافية الوصفية، لأن الرحلة عبارة عن مرجع من المراجع التي يعتمدون عليها في مؤلفاتهم العلمية والأدبية كما أن العلماء الأوائل اشتهروا بتنقلاتهم للدراسة على أيدي مشاهير الأساتذة في العلوم التجريبية في بقاع العالم، لذا نرى أن علماء العرب والمسلمين قلوبهم كانت مفعمة بحب الرحلات.

لقد أدرك علماء العرب والمسلمين بعد قناعتهم التامة بكروية الأرض أن ليس هناك مانع أن توجد أرض ثانية على الجهة الأخرى من الأرض، لذا يتضح للقارىء أن علماء العرب والمسلمين أول من فكر في اكتشاف أمريكا بطريقة علمية.

لعلماء المسلمين إضافات جوهرية في علم الجغرافية تفوق كثيرا ماتوصل إليه كل من علماء اليونان والرومان، فقد ترك لنا علماء المسلمين وصفا لجميع البلدان من أسبانيا غربا إلى تركستان ومصب السند شرقا وأولوا عناية خاصة للأماكن المأهولة بالسكان والمناطق الزراعية، وحاولوا معرفة مدى انتشار المزروعة وأماكن وجود المعادن.

والمتواتر عند المؤرخين أن علماء كل من اليونان والرومان معلوماتهم كانت ناقصة عن البلدان الواقعة إلى الشرق من بحر قزوين، كما كانوا يجهلون تماما الساحل الشرقي لآسيا إلى الشمال من الهند الصينية. بينما تمكن علماء العرب والمسلمين من معرفة سواحل آسيا الشرقية إلى كوريا شمالا، ويرجح بعض الرواة

أن علماء المسلمين عرفوا اليابان فلله درُّهم.

تفوق علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية:

سجل علماء العرب والمسلمين ملاحظاتهم الجغرافية الثمينة من خلال رحلاتهم المتكررة برا وبحرا، لذا نرى أنهم اعتبروا علم الجغرافية علما قائما بذاته، ولعل الذي دفعهم إلى هذا الاعتقاد أسباب كثيرة منها:

١ ـ الفتوحات الإسلامية التي أوجبت عليهم معرفة المسالك، والمناطق الزراعية لتموين الجيوش الفاتحة.

٢ ـ فريضة الحج التي ألزمت كل مسلم ومسلمة القيام بزيارة مكة المكرمة، مما اضطرهم إلى دراسة الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة عن كثب.

٣ ـ الحرص على الخبرة الشخصية التي قادت علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية لأن يتنقلوا في البادية ليسمعوا أخبار القبائل وأشعارهم لكي يستخلصوا بعض المعلومات الجغرافية والفلكية من أقواهم.

٤ ـ حب العرب الواضح للرحلات لأنهم امتهنوا التجارة التي كانت المعول لتنشيط الاكتشافات الجغرافية العظيمة التي قام بها رواد الفكر في هذا المجال الحيوي.

٥ ـ كان ولاة الأمور يقربون إليهم رجال العلم، ويجزلون العطاء عندما يكتشف أحدهم طريقا سهلا يخدم الأمة لمعرفة أجزاء الدولة الإسلامية والدول المجاورة لهم.

٦ ـ حياتهم البداوية التي تفرض على العرب والمسلمين معرفة الاتجاهات والمناطق وموعد هطول المطر والآبار، فهم جغرافيون بحكم بيئتهم.

ومما زاد في تفوق علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافيا كونهم ينتمون إلى بلدان عديدة، فمنهم من جاء من سمرقند والأندلس وفارس والشام ومصر والهند وغيرها، وكل هؤلاء دونوا معلوماتهم الجغرافية بلغة واحدة لغة القرآن الكريم، لذا نجد أن علوم الجغرافية عند العرب والمسلمين تمتاز عن غيرها في التجارب والمشاهدات الشخصية فمثلا العالم من الشام يستطيع أن يكتب عن بلاد الشام بطريقة علمية تفوق غيره من بلاد الأندلس وهكذا.

اجتمع علماء العرب والمسلمين فصهروا معلوماتهم المختلفة المصادر في بوتقة واحدة حتى صاروا قادة الفكر في هذا الميدان، فهم الذين وصفوا الأقاليم وصفا علميا منظما يخضع للمشاهدة والدراسة العلمية فبينوا حدود الأرض وتقاسيم الممالك، وضبطوا المسافات بين الأقطار، ووصفوا للبلدان ملامحها المتعددة من جبال وبحار وأنهار ومعادن وآبار وغيرها.

وصل علماء العرب والمسلمين في العلوم الجغرافية إلى القمة في القرنين الثالث والرابع الهجريين، ولذا يمكن تقسيم مؤلفاتهم الجغرافية إلى أربعة أقسام:

الأولى: وهي التي تناولت الدولة العباسية من الناحية الطبيعية والبشرية والاقتصادية والفلكية.

الثانية: امتدت للعالم الإسلامي بأسره، ولذا فقد درسوا الأندلس وشمال إفريقية بالتفصيل.

الثالثة: تطرقت لمعرفة الكرة الأرضية وسكانها من الناحية الجغرافية الوصفية.

الرابعة: اهتمت بالملاحة لأن علماء العرب والمسلمين صار لديهم معرفة واضحة جيدة بالرياح الموسمية حيث كان لهم شأن عظيم في التجارة شرقا وغربا آنذاك.

لقد اشتهر علماء العرب والمسلمين بنشاطهم الجم في حقل علم الجغرافية فبعض علماء الغرب أعجبوا بنتاجهم الجغرافي، فكتبوا عن ذلك في مؤلفاتهم الجغرافية والتاريخية، ونوهوا عنهم في أحاديثهم، وهذا أقل مايجب عمله نحو عمالقة علماء الجغرافية في الإسلام.

ومما يؤسف له أنه في القرن السادس الهجري انتشرت الفوضى واهتزت السلطة في الدولة الإسلامية، لذا وقف تقريبا عصر الاكتشافات الجغرافية، فاقتصر علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية على الاقتباس من مصنفات السابقين لهم. ومن هنا بدأ عصر المعاجم والموسوعات العلمية التي جمع فيها أعمال علماء العرب والمسلمين الأوائل في كل من العلوم البحتة والتطبيقية.

نعم إن الموسوعات والمعاجم مثل (معجم البلدان) لياقوت الحموي، و(نهاية الأدب) للنويري، و(مسالك الأبصار) للعمري، و(صبح الأعشى)للقلقشندي وغيرها أفادنا الباحثين في جميع فروع المعرفة وخاصة في علم الجغرافية بفروعها المختلفة.

إن النظريات والآراء الحديثة في علم الجغرافية ليست إلا امتداداً للنظريات والآراء والاتجاهات الفكرية عند علماء العرب والمسلمين الأوائل في هذا المجال، فمن أراد أن يواصل معلوماته الجغرافية، فلابد له من إيجاد رابطة التسلسل التاريخي وإلا صارت معلوماته ضبابية هشة.

لقد حثنا ديننا الحنيف على التأمل ودراسة السماوات والأرض، والكون، وتعاقب الليل والنهار، وخسوف الشمس، ونمو الأعشاب والأشجار وغيرها، وهذه كلها من المقومات الأساسية لعلم الجغرافية، إضافة إلى أن الدين الإسلامي دعانا إلى السفر واستعمال العقل لاكتشاف أسرار الكون، والله المستعان.

obeikandl.com